

وتدور قصة القرى على أصول واحدة أو كالواحدة، فما تكاد تختلف إلا في الفروع: طارق ليل، أضناه السرى، ومسه البرد، فلا يستطيع مضيا إلى طيته، ولا قرارا على حاله، لكنه حائر، لا يعرف أين يقصد، ولا على أي وجه يأخذ، فالظلام حالك، والسكون شامل، فليس يسمع صوتا، ولا يرى حركة. لا حيلة له إذاً إلا أن يستنبح الكلاب الهامدة، فيتهدي بنباحها إلى طريق الحى ومقامه، إن يكن حي هناك.

فما هو إلا أن يفعل حتى يتجاوب النباح، ويهب النوم، ويتردد التنادى والصياح: طارق ليل، أو قدوا النار، فترتفع ألسنة اللهب على البقاع والتلاع، لتأخذ به إلى أصحابه قصدا، وهناك يحسن القوم لقاءه، ويكرمون نزله، فيمضى كبيرهم إلى إبله فيتخير منها ناقة سميئة، لا يمنعها منه كرمها عليه، أو احتياحه إليها، فينحرها، وتنصب القدور، وتضرم النيران، فيمتليء الجر بأزيز القدور ونشيش الشواء، فإذا ليلة هائلة تحفل بالدفء وألوان الطعام. ومستنبح قال الصدى مثل قوله حصأت له نارا لها حطب جزل(1)

فقلت إليه مسرعا فغنمته مخافة قومي أن يفوزوا به قبل

فأوسعني حمدا وأوسعته قرى و أرخص بحمد كان كاسبه الأكل(2)

وربما لا تبدأ القصة بالاستنباح، ولكن بدعوة الزوج مثلا إلى المشاركة بنصيبها في استقبال الضيف والحفاوة به، كقصة مرة بن محكان إذ يقول:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رجال القوم والقُرْبُ(3)

في ليلة من جمادي ذات أندية لا يبصر الكلب من ظلماتها الطُنْبُ(4)

(هو امش)

(1) حصأت: أوقدت.

(2) الطنب: حبل الخباء.

(3) القرب: جمع قراب، وهو الغمد، وكان الضيف إذا نزل بهم ضموا إليهم رحله، وبقي معه سلاحه خوف البيات، والشاعر هنا يذكر أن ضيفه في منعة ويطلب إلى زوجه أن تضم إليها رحله وسلاحه، فليس به حاجة إلى السلاح(الأغاني: 20: 51)

(4) الطنب: حبل الخباء.

